رومل غريب
دائرة الآثار العامة

رومل غريب

الأزرق ودورها الاستراتيجي والتجاري

مقدمة

تعالج هذه الدراسة منطقة جغرافية مهمة هي الصحراء والهضاب الشمالية الشرقية من الأردن والتي تضم قيعان مختلفة المساحات، أهمها قاع الأزرق الذي تبلغ مساحته (١٢٠٠٠كم)، ويمتد بين جبل العرب شمالاً (جبل الدروز في جنوب سوريا) حتى الحدود السعودية جنوباً. ويحد هذه المنطقة من الغرب الأخدود الممتد بين الأزرق ووادي السرحان ويبدأ هذا المنخفض من جبل العرب متجهاً إلى الجنوب الشرقي ماراً بواحة الأزرق حتى يصل إلى منطقة الجوف في المملكة العربية السعودية. والتي كانت تمثل حلقة الربط بين وسط الجزيرة العربية وبلاد الشام (كفافي ١٩٩٠).

ويطلق على هذه المنطقة حالياً إسم الأزرق ووادي السرحان، اللذان يشكلان معاً وادياً سمي قديماً بـ (وادي الأزرق) مما يثبت أن الأزرق جزءٌ لا يتجزأ من وادي السرحان، وإكتسب الوادي هذا الإسم نسبة إلى عشيرة السرحان التي كانت أقوى عشائر حوران في القرن العاشر الهجري، ووادي السرحان واد عظيم طويل يعد جغرافياً من بلاد الشام وإن كان الآن في أقصى الشمال الغربي من السعودية وفي جنوب حرة راجل (زكريا ١٩٨٣)، ويبلغ طوله حوالي (٣٥٠كم) وعرض يتراوح ما بين (٥-٤٠كم). ويمتد من واحة الأزرق بإتجاه الجنوب والجنوب الشرقي حتى دومة الجندل بمنطقة الجوف، والجوف تعد من أهم نواحي وادي السرحان، إذ تقع في أقصى جنوب الوادي، في غور من الأرض، وتحدق بها الهضاب والأكام، وقد مثّلت خلال هذه الفترة سوق لم يقتصر على البيع والشراء فقط، بل ولفكاك الأسرى ودفع ديات الإصلاح بين القبائل وغير ذلك من الأمور الهامة، ومن هنا كان تسمية البدو لها بالجوف (السرحاني ١٩٨٧).

احتلت منطقة الأزرق نتيجة لموقعها الجغرافي الهام على الطريق المباشر ما بين بلاد الشام ومنتصف الجزيرة العربية ـــ كممر للقوافل والقبائل ـــ دوراً تجارياً هاماً منذ أقدم العصور، وأثبتت الدراسات والتنقيبات الأثرية أن استقرار الإنسان فيها يعود لأكثر من (٢٠٠) ألف عام، فقد بيّنَ لنا الباحث الأمريكي (Gary Rollefson) أن موقع عين الأسد في منطقة الأزرق يعود لأواخر المرحلة الأولى من العصر الحجري القديم، وأن الإنسان الذي عاش في هذه المنطقة لم يكن معزولاً عن المجتمعات المحيطة به مهما بعدت المسافة، والدليل على هذه العلاقة المتبادلة الأدوات المصنوعة من خامات الأوبسايدن الموجودة محاجرها في بلاد الأناضول، كما قدمت الباحثة الإنجليزية (Alison Betts) من خلال حفرياتها ومسوحاتها التي شملت هذه المنطقة معلومات مهمة حول طبيعة حياة المجتمعات البشرية التي عاشت فيها خلال الألفين السابع والسادس ق.م، وكَشفت لنا عن نشاطات إنسانية واسعة ومعلومات قيمة حول طبيعة الاستيطان خاصة المواقع التي عرفت باسم (Burin Sites) ويعتقد بأن بعض الزراعات الخفيفة قد مورست على ضفاف بعض الأودية التي تخترق هذه الصحراء. وعلى الرغم من أن كلَ عائلة لها مواقعها الخاصة بها إلا أنها كانت على اتصال مع العائلات الأخرى، ويثبت هذه الاتصالات المواد المستوردة من خارج المنطقة الصحراوية مثل (الأصداف البحرية وبعض الحجارة الكريمة) كما أن بناء المصائد (kites) وترميمها والمحافظة عليها تحتاج لجهد أكثر من عائلة واحدة، وذلك لكبر حجمها وكثرة عدَدها. وإذا جاز لنا التعبير فإنه يمكن تسمية مثل هذه الإتصالات بأنها بداية علاقات تجارية لسكان هذه المنطقة مع المناطق المحيطة.

الأهمية الاستراتيجية والتجارية للمنطقة عبر العصور

مثّلت فترة الألف الأول قبل الميلاد، فترة هامة في تاريخ المنطقة، إذ شهدت بداية النشاط الفعلي لتجارة جنوب الجزيرة العربية، وإزدهار طرق القوافل التي لعبت دوراً هاماً في تنشيط الحركة الاقتصادية في المدن والمستوطنات على امتداد هذه الطرق. وبرزت خلال هذه الفترة القبائل العربية الشمالية على مسرح التاريخ كتكوينات سياسية هددت حدود دولة آشور، وأشارت السجلات الآشورية لحملات شنَها ملوك الآشوريين، والتي بدأت بحملات بليسر الثالث وأنتهت بحملات الملك آشور بانيبال ضد القبائل العربية في شمال الجزيرة العربية وضد دومة الجندل مركزهذه القبائل (المعيقل ١٤٢٢هـ).

والفترة الواقعة في منتصف القرن الأول والقرن الثاني ق.م شهدت نهاية الدولة البابلية التي سيطرت على شمال الجزيرة العربية في نهاية القرن السادس ق.م، وبسقوط هذه الدولة استطاع الفرس بسط سيطرتهم على أجزاء كبيرة من وادي الرافدين وبلاد الشام، مما يؤكد أن المنطقة خضعت خلال هذه الفترة لنفوذ دولة الفرس. وقد أضافت المكتشفات الأثرية التي تم الكشف عنها بُعداً جديداً في

التسلسل التاريخي لشمال الجزيرة العربية حيث أزدهرت كطريق للقوافل التجارية القادمة من شرق الجزيرة العربية إلى بلاد الشام، وتلك القادمة من جنوب الجزيرة العربية بإتجاه جنوب وادي الرافدين. وهنا تكمن أهمية منطقة الأزرق كملتقى لطرق القوافل في هذه الفترة لوقوعها على مدخل وادي السرحان بإعتباره حلقة الوصل بين شرق الجزيرة وجنوب وادي الرافدين مع بلاد الشام، وكانت الدافع الرئيسي الذي لفت أنظار الأنباط إلى أهمية هذه المنطقة كون عاصمتهم البترا أصبحت مركزاً للقوافل التجارية، وكان لا بد من السيطرة وبسط النفوذ على هذه المنطقة، وثبت ذلك من خلال النقوش النبطية التي تم إكتشافها في منطقة الجوف، والتي تشير إلى أنها كتبت من قبل قوات نبطية كانت تراقب طريق وادي السرحان (المعيقل ١٤٢٢هـ).

ونتيجة لسيطرة الرومان على تجارة البحر الأحمر واكتشاف سر الرياح الموسمية، خلال القرن الأول الميلادي. تحولت في هذه الفتره تجارة جنوب الجزيرة العربية باتجاه الموانئ المصرية، ومنها إلى البحر الأبيض المتوسط، الأمر الذي أدى إلى اضمحلال دور البترا، كمركز لهذه التجارة، وفقدت أهميتها التجارية شيئاً فشيئاً وبرزت بصرى كبديل لها، وأصبحت مركزاً تجارياً هاماً وإحدى أهم المدن النبطية. وكان من الضروري ربط البترا العاصمة ببصرى، وهذا لم يكن ليتأتى إلا عن طريق وادي السرحان لتلافي المدن العشر (Decapolis). حتى أنه قد ورد ذكرها في النقوش الصفوية حيث يعتقد الباحثون بأن الصفويين كانوا يطلقون اسم «المدينة» على بصرى، وإذا كانت هذه التسمية الثانية لبصرى فأنها ترد في خمسة نقوش صفوية أخرى.(الخريشة ١٩٩٢).

وبحلول عام ١٠٦م سقطت البترا عاصمة الأنباط على يد الإمبراطور تراجان وأدى ذلك إلى ضم معظم الأراضي النبطية الواقعة في بلاد الشام إلى سلطة بصرى عاصمة المقاطعة العربية الرومانية (Pravincia Arabia)، والممتدة من حوران وشرقي الأردن إلى العقبة. ولم يمتد نفوذ السلطة الرومانية المباشر على وادي السرحان بأكمله بل على الأجزاء الشمالية منه حول منطقة الأزرق في الأردن، حيث أهتموا بتحصين النهاية الشمالية لوادي السرحان ببناء مجموعة من الحصون في كل من الأزرق والأصيخم والعويند (**الشكل ١**)، وذلك لمراقبة هذه

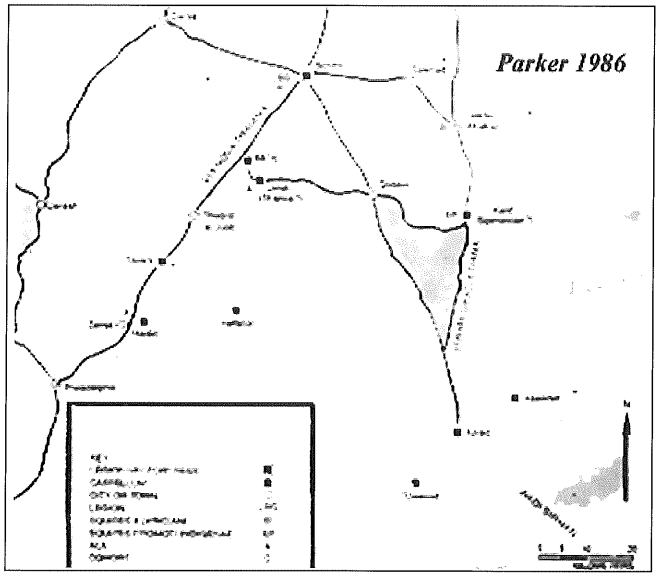

١. طرق القوافل في الفترة الرومانية.

المنطقة والسيطرة على حركة القبائل العربية عبر وادي السرحان بإتجاه سوريا مُحَاوَلةً منها إقتحام جنوب سوريا ومنطقة حوران، حيث كانت تهاجم الحدود الشرقية للمقاطعة العربية الرومانية، متحركة عبر وادي السرحان أقصر الطرق المؤدية من وسط الجزيرة العربية وشمالها إلى سوريا. وقد كانت فرق من الفيلق الثالث الروماني ترابط في منطقة الأزرق والمواقع القريبة منها كالأصيخم والعويند (**الأشكال ٢، ٣**) ولم تقف مهمة هذا الفيلق هنا، بل أمتدت إلى دومة الجندل، حيث عثرعلى نقش يعود للأمبراطورين سبتيموس سيفروس وكاركلا (المعيقل ١٤٢٢هـ) وفي هذه الفترة ولدى إعتلاء الأمبراطور سبتيموس سيفروس سدة الحكم زاد الإهتمام بمنطقة الأزرق، للأسباب التالية :

أولاً: تجاري بحت؛ حيث أن السيطرة على منافذ منطقة الأزرق ووادي السرحان تعني وصول القوافل بأمان وسلام، كما أن منطقة الأزرق تعد المحطة الأخيرة المتفرعة من الطريق التراجاني العظيم، بالإضافة الى أن معظم الطرق المؤدية إلى وسط وشمال الجزيرة العربية لا بد أن تسلك الطرق المارة من وادي السرحان (حشاش ١٩٩٩).

٢. قصر أصيخم.

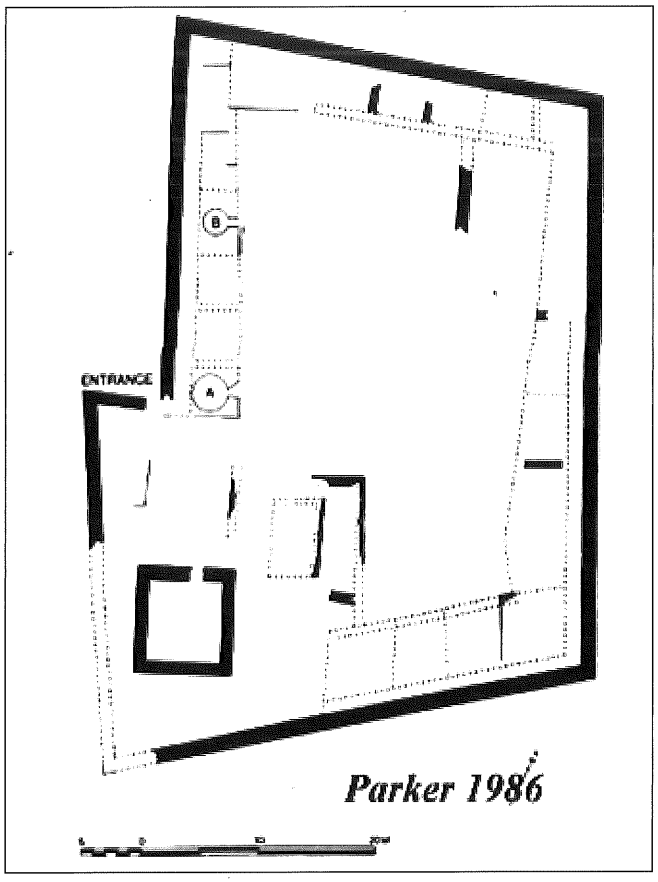

٣. مخطط لقصر العويند.

ثانياً: عسكري يكمن في الحملات المستمرة والمتكررة التي كان يقوم بها سيفروس على بلاد فارس وَحُرُوبه الدائمة معهم فوجد أن منطقة الأزرق تعد خطاً خارجياً للنشاط العسكري، وتعمل كحد فاصل في الجهات الشرقية بين المناطق التي يسيطر عليها الرومان وبين حدود الإمبراطورية الفارسية .

وكنتيجة للحروب المستمرة بين الدولتين الفارسية والرومانية، قامت الأمبراطورية الرومانية بالبحث عن طرق بديل للقوافل التجارية لتَحاشي السيطرة الفارسية، مما أدى إلى إستعمال العديد من الطرق التي تخترق الجزيرة العربية والتي كان من أهمها طريق وادي السرحان، والذي يعد من أهم الطرق في تلك الفترة وحتى القرن الرابع الميلادي. إلى أنْ نشطت طرق الملاحة البحرية.القادمة من ميناء خليج العقبة على البحر الأحمر ومن ثم نقلها عبر طريق الحجاز وجنوب الأردن إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط، مما قلل كثافة سلوك هذا الطريق في هذه الفترة (Parker 1986a).

وفي القرن الرابع الميلادي تنبهت الإدارة البيزنطية للدور الإستراتيجي لقلعة الأزرق، مما دفعها إلى تأمين وحماية سلامة الطريق المار من وادي السرحان إلى موانئ الخليج العربي وأواسط الجزيرة العربية، وإستمر ذلك طول فترة الحرب الباردة بين الدولة الفارسية والدولة البيزنطية (حشاش ١٩٩٩).

وبعد إنتشار المسيحية في القرنين الرابع والخامس الميلادي، وزيادة عدد سكان المنطقة وتردي الأوضاع العامة وما تبعها من ضعف للدولة البيزنطية خلال القرنين السادس والسابع الميلادي الأمر الذي أضطرها لسحب قواتها من الإقليم العربي. ولأهمية موقع قلعة الأزرق الإستراتيجية فقد بقيت خاضعة للدولة البيزنطية، ومن المرجح أن كتيبة صغيرة استقرت بها، و كانت من ضمن القلاع التي تم إصلاحها في عهد الإمبراطور قسطنطين (Parker 1986b).

وبنهاية القرن السادس الميلادي وبداية القرن السابع الميلادي بدأت مراحل ضمور وإنهيار الدولة البيزنطية في عهد الإمبراطور هرقل، وفي نفس الوقت فقد تبلورت قوى أخرى وهي قوى الدعوة الإسلامية التي ألحقت بالدولة البيزنطية هزائم عديدة إنتهت بالتخلص من الحكم البيزنطي للمنطقة، في بداية الفتوحات الإسلامية، وبعد تولي الأمويين سدة الحكم في سنة ٦٦١م والعمل على إرساء قواعد الخلافة، لفتت المنطقة أنظار الأمويين لما تتمتع به من طبيعة خلابة، مما دعاهم إلى بناء عدد من القصور مثل قصر عمره الذي يقع على وادي البُطم (**الأشكال ٤، ٥**) والحرانه وإلى الشمال قصر الحلابات وإلى الجنوب قصر طوبة والمُشَتى وإلى الشرق قصر عين السل. ومن خلال توزيع هذه القصور نجد أن الخليفة استهدف تواجد تجمعات القبائل العربية بهدف الحفاظ على موالاتهم للدولة الأموية. وحتى يبقوا على صلة بالقبائل العربية التي تتكلم اللغة العربية الفصحى والبعيدة عن اللكنة، إضافة إلى حبهم للإرتحال والسفر وولعهم بالصيد وذلك لكثرة الحيوانات في تلك المنطقة. ولم يضطر الأمويون لبناء القلاع بل سكنوا القلاع الموجودة والتي كانت ما تزال بحالة سليمة، وقد نزلوا بقلعة الأزرق (**الشكل ٦**) وقصر العويند. ولأهمية المنطقة الإستراتيجية كعقدة مواصلات بين الجزيرة العربية وبلاد الشام في هذه الفترة كونها معبراً للقوافل القادمة من المدينة إلى الحجاز ومنطقة الجوف ودومة الجندل، فقد سلكها القائد الإسلامي خالد بن الوليد عند دخوله الصحراء السورية لفتح حوران وبصرى، كما استخدم الإمويون عدداً من طرق المواصلات والتجارة التي تصل دمشق – كونها عاصمة الخلافة الأموية – بغربي الجزيرة العربية وأهمها الطريق الممتد ما بين شرقي البادية الأردنية وشرقي الصحراء السورية عبر وادي السرحان ليصل إلى شمال الجزيرة العربية وقد إستخدم في هذه الفترة لإرسال البريد، كما فضلوه كطريق للوصول إلى قرى جنوب حوران وبصرى ودمشق وأم الرصاص وأم القطين، وذلك لإنتشار مصادر المياه فيه الأمر الذي جعله محبباً للاستخدام من قبل الخلفاء وعلية القوم. كما قاموا بتأسيس طريق جديد بهدف الوصول إلى قصر الطوبة (**الشكل ٧**) الذي يبعد عن وادي السرحان ٣٤ كم (King 1987).

إقتصردورالسلاطين الأيوبين بعد إدراكهم للأهمية الاستراتيجية التي تمثلها منطقة حوران والبادية الشامية بإعتبارها همزة الوصل بين بلاد الشام والحجاز على توفير الأمن والإستقرار في المنطقة وبناء القلاع وترميم القديم منها، وتأمين طرق القوافل التجارية والحجاج

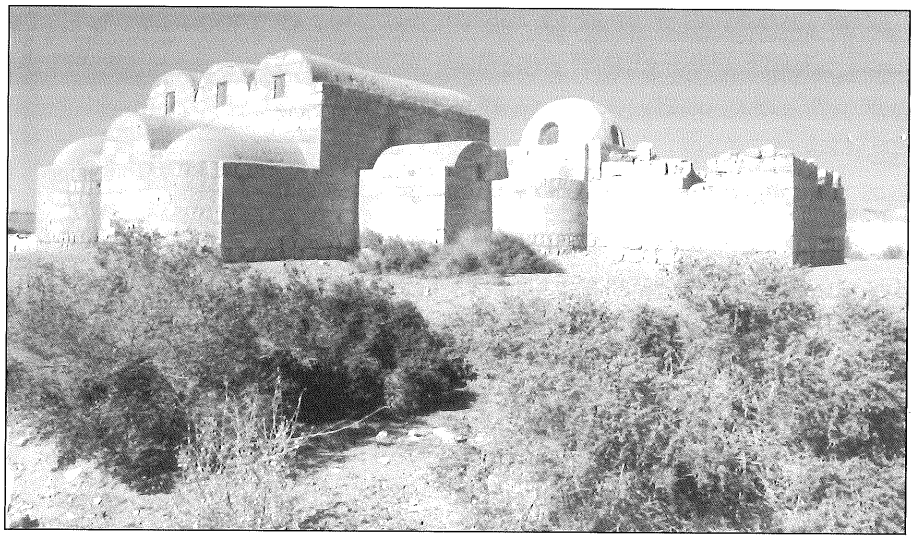

٤. قصر عمره.

٥. قصر عمره ووادي البُطم.

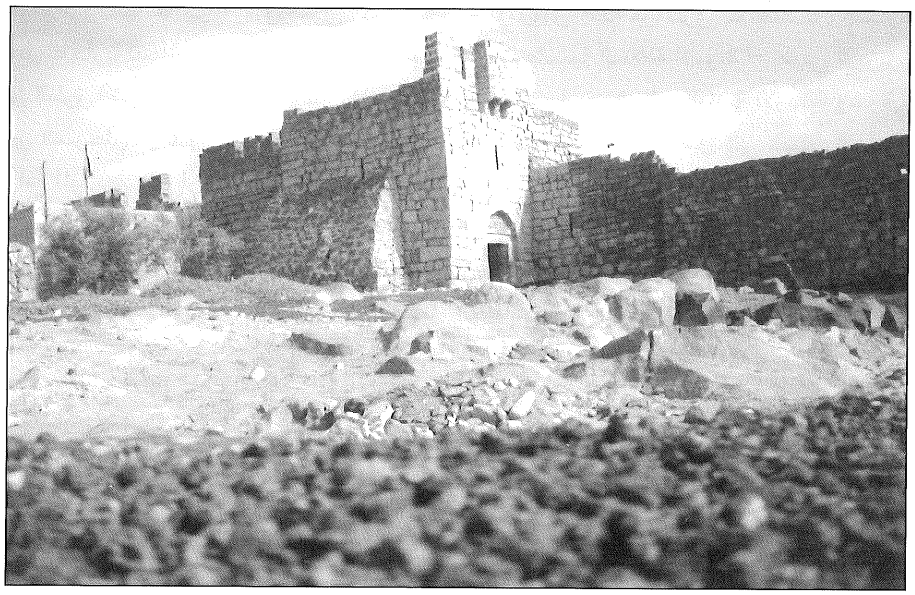

٦. قلعة الأزرق.

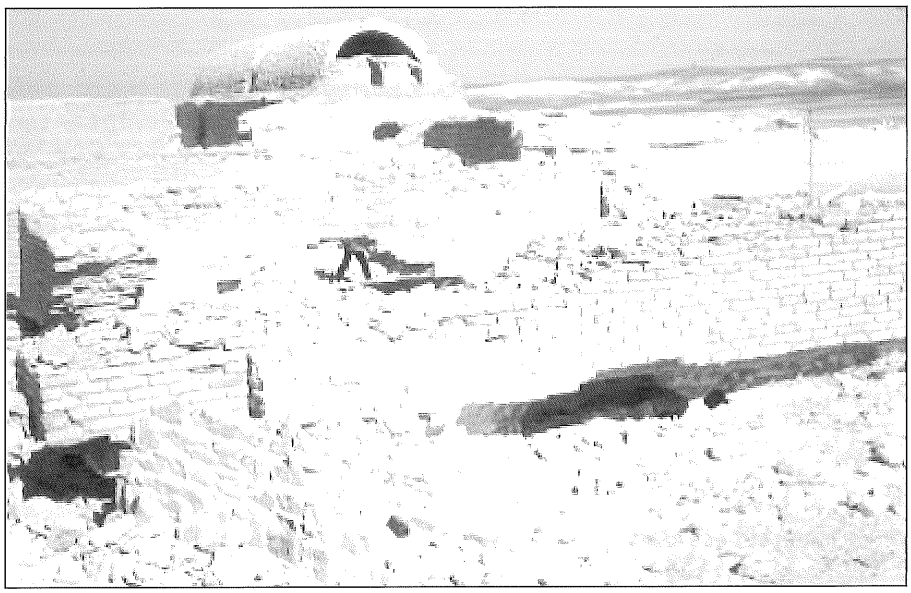

٧. قصر الطوبة.

وتعبئة المستودعات بالإمدادات العسكرية، إضافة إلى تنبه الأيوبيين إلى إستراتيجية موقعها وتوفر مصادر المياه وكونها صلة وصل بين شمال بلاد الشام وجنوبه من جهة وبين الحجاز والعراق من جهة ثانية، مما دعاهم إلى الإعتناء بالتحصينات والملاجئ التي يلوذ إليها أهل الشام. وإزداد إهتمام المماليك بهذه التحصينات حيث عملوا على بناء وترميم هذه القلاع وخاصة في فترة القائد عز الدين أيبك الذي بنى مدخل قلعة الأزرق من الجهة الغربية وثبت ذلك على نقش فوق عتبة المدخل ونصه: **[بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمارة هذا القصر المبارك الفقير إلى الله عز الدين أيبك أستدار الملك المعظم بولاية علي ابن الحاجب سنة ٦٣٤هـ]**.

وإستمر الإهتمام بهذه القلاع وبالأخص أبان الزحف المغولي، وبذلك شكلت خطاً دفاعياً ضد تقدم التتر والمغول، إضافة إلى ذلك أن سلاطين المماليك ارتادوا هذه المناطق لنفس الهدف الذي ارتاده الأيوبيون من قبلهم والمثل في الصيد والاستجمام (حشاش ١٩٩٩)، وخلال العهد العثماني أهملت المنطقة وذلك نتيجة لبعدها عن طريق الحج الشامي وخط سكة الحديد الحجازية. وتنامت أهمية المنطقة خلال القرن العشرين وبرزت هذه الأهمية في أعقاب الفترة التي سبقت الحرب العالمية الثانية بإتخاذ الكولونيل لورنس منها مقراً عسكرياً لنشاطاته في الزحف على دمشق، وإعاقة إرسال الإمدادات إلى الجيش التركي في الحجاز، كما إتخذها الملك فيصل أبان الثورة العربية الكبرى مركزاً لقوات الجيش العربي بحيث كانت مكاناً ملائماً للمعدات العسكرية ونقطة لإنطلاق الجيش (Lawrence 1962)، وعادت لتأخذ دوراً ريادياً في فترة الإستعمار البريطاني حيث قامت حملة من القوات البريطانية عام ١٩٢١م بالكشف عن الطريق بين شرقي الأردن والعراق، وتحديد معالمها بهدف الإتصال البري بين القطرين عبر الصحراء السورية، وكانت هذه المنطقة بمثابة قاعدة لأفراد هذه الحملة، حيث أنشأوا العديد من المغافر فيها على طول الخط، وقد نجحت هذه الحملة في إنشاء طريق تسلكه السيارات والطائرات حالياً يمتد من العراق إلى شرق الأردن.

وقد كان لأحداث تغلب الفرنسيين على الثورة السورية الكبرى أثره على المنطقة، مما زاد في أهميتها؛ حيث لجأ إليها قائد الثورة السورية سلطان باشا الأطرش مع عدد كبير من أعيان جبل الدروز ورجال الثورة، وقد أصبحت حالياً مقراً لإستقرار الدروز الذين قدموا إليها بعد الثورة. ولا تزال هذه المنطقة ممراً حيوياً لحركة التجارة بإتجاه العراق من خلال مركز الرويشد وبإتجاه المملكة العربية السعودية عبر حدود العمري (الماضي والموسى ١٩٨٨).

في الختام فإن هذه الدراسة قد ألقت الضوء على جانب متواضع من جوانب متعددة تميزت بها عبر العصور .

المراجع

أبو نواس، جمال

1995 **تاريخ الزرقاء ومنطقتها في النصف الأول من القرن العشرين.** مطابع القوات المسلحة الأردنية: عمان.

بحيري، صلاح الدين

1973 **جغرافية الأردن.** مطبعة الشرق: عمان.

حتي، فيليب وجرجي، إدوارد وجبور، جبرائيل

1980 **تاريخ العرب.** دار غندور للطباعة والنشر والتوزيع.

حشاش، نيفين

1999 **قصر الأزرق الإسلامي والمحيط الآثاري – دراسة آثارية وبيئية.** رسالة ماجستير. الجامعة الاردنية: عمان.

درادكة، صالح

1997 **طرق الحج الشامي في العصور الإسلامية.** المطابع العسكرية: عمان.

زلوم، حموده

1994 **الزرقاء – المدينة والمحافظة ماضيها وحاضرها.**

زكريا، أحمد
1983 **عشائر الشام**. دار الفكر: دمشق .
السرحاني، سلطان
1987 **من معالم جغرافية وتاريخ شبه الجزيرة العربية – وادي السرحان**. دار الثقافة: الدوحه.
1997 **وادي السرحان في الميزان ردود وأبحاث وحقائق**.
الصلال، عايدة
2002 **الآثار والمواقع السياحية في الأردن**. مكتبة الإمام علي للنشر والتوزيع: الزرقاء.
غريّب، رومل وكوانتاري وليسلي
1999 **وادي راجل، قضاء الأزرق**. تقرير غير منشور، دائرة الاثار: عمان.
الخريشة، فواز
1992 الأماكن والقبائل من خلال النقوش الصفوية. **دراسات في تاريخ وآثار الأردن** (مجلد 4). دائرة الآثار العامة: عمان.
كفافي، زيدان
1990 **الأردن في العصور الحجرية**. مؤسسة آل البيت: عمان.
ماضي، فيليب والموسى، سليمان
1988 **تاريخ الأردن في القرن العشرين** (1959-1900). مكتبة المحتسب: عمان.
مخلوف، لويس
1983 **الأردن تاريخ وحضارة**. المطبعة الإقتصادية: عمان.
مصري، عبدالله
1975 **مقدمة عن آثار المملكة العربية السعودية**. إدارة الآثار والمتاحف وزارة المعارف: المملكة العربية السعودية.
المعيقل، إبراهيم
1422 هـ **بحوث في آثار منطقة الجوف**. مؤسسة عبد الرحمن السديري الخيرية: الجوف.
النوايسة، صالح
1998 **الزرقاء، حصن الهجرتين وقلعة العودتين**. دارالعكش للنشر والتوزيع: بيروت.
هاردنج، لانكستر
1965 **آثار الأردن**. ترجمة سليمان موسى. منشورات اللجنة الأردنية للتعريب والترجمة والنشر: عمان.

Betts, A. 1982. Prehistoric Sites at qa'a Mejalla, Eastern Jordan. *Levant* 14:1-34.

Bowersock, G.W. 1982. *Roman Arabia.* Cambridge, Massachusetts: Harvard University Press.

Kennedy, D.1982. Archaeological Explorations on the Roman Frontier in North-East Jordan. BAR I*nternational* series 134.

King, G.R.D. 1987. The Distribution of Sites and Routes in the Jordanian and Syrian Desert in the Early Islamic Period. *Proceedings of the Seminar for Arabian Studies* 17: 91-106.

Lawrence, T.E. 1962. *Sven Pillars of Wisdom.* London: Grosenor Place.

Parker, S.T. 1986a. Romans and Saracens: A History of the Arabian Frontier. *ASOR* 6.

___ 1986b. Retrospective on the Arabian Frontier after a Decade of Research. Pp. 633-660 in P. Freeman. and D. Kennedy (eds.), *The Defence of the Roman Byzantine East II.* BAR Intl. Ser. 207. Oxford: BAR.

___ 1992. The Limes and Settlement Patterns in Central Jordan in the Roman and Byzantine Periods. *SHAJ IV*: 321-336.

___ 1995. The Typology of Roman and Byzantine Forts and Fortresses in Jordan. *SHAJ. V*: 251-260.